

بعض خصائص تطور الماركسية التاريخية

فلاديمير لينين
6 / 11 / 2008

كان انجلس يقول في معرض حديثه عن نفسه وعن صديقه الشهير ان مذهبهما ليس بمذهب جامد، انما هو مرشد للعمل، ان هذه الصيغة الكلاسيكية تبين بقوة رائعته وبصوره اخاذة هذا المظهر من الماركسية الذي يغيب عن البال في كثير من الاحيان. واذ يغيب هذا المظهر عن بالنا، نجعل من الماركسية شيئاً وحيد الطرف، عديم الشكل، شيئاً جامداً لاحية فية، وتفرغ الماركسية من روحها الحية، وننسف اسسها النظرية الجوهرية - نعني الديالكتيك، أي مذهب التطور التاريخي المتعدد الاشكال والحافل بالتناقضات، - ونضع صلتها بقضايا العصر العملية والدقيقة، التي من شأنها ان تتغير لدى كل منعطف جديد في التاريخ. والحال، بين الذين تهمهم مصائر الماركسية في روسيا، نجد في اغلب الاحيان، وفي ايامنا هذه على وجه الضبط، اناساً غاب عن بالهم هذا المظهر من الماركسية بالضبط. مع ان الجميع يدركون ان روسيا قد مرت في السنوات الاخيره، بتحولات حاده، كانت تعدل الوضع بسرعه خارقه ومدهشة حقاً، الوضع الاجتماعي والسياسي الذي يحدد شروط العمل بصوره مباشره فورية، وبالتالي، مهمات هذا العمل. واني لا اقصد، بالطبع، المهمات العامه والجوهرية التي لا تتغير في منعطفات التاريخ، حين لا تتغير النسبه الاساسيه بين قوى الطبقات. وبديهي تماماً ان هذا الاتجاه العام لتطور روسيا الاقتصادي (وليس الاقتصادي فحسب)، وكذلك النسبه الاساسية بين قوى مختلف طبقات المجتمع الروسي، لم يتغيرا، فعلاً، خلال السنوات الست الاخيرة مثلاً.

ولكن مهمات العمل المباشر والفوري تغيرت بصوره سريعه جدا خلال هذه الحقبة من الزمن، تبعاً لتغيرات الوضع الاقتصادي والسياسي الملموس، ومذ ذاك، كان لابد لشتى مظاهر الماركسية، التي هي مذهب حي، من تبرز الى المرتبة الاولى.

ولاجل توضيح هذه الفكرة لنر ايه تغيرات طرأت على الوضع الاجتماعي والسياسي الملموس في هذه السنوات الست الاخيره. اننا نلاحظ فوراً ان هذه الحقبة من الزمن تنقسم الى مرحلتين كل مرحله من ثلاث سنوات: المرحلة الاولى تنتهي تقريباً في صيف 1907، والمرحلة الثانية في صيف 1910. ان مرحله السنوات الثلاث الاولى تتصف من الناحية النظرية الصرف، بتحول سريع في ميزات النظام السياسي الاساسيه في روسيا. وهذا التحول جرى بوتيره غير منتظمه الى حد بعيد، اذ كان مدى الذبذبات قوياً جداً في الاتجاهين. اما الاساس الاجتماعي والاقتصادي لهذه التغيرات في ((البناء الفوقي))، فقد كان العمل الجماهيري، السافر والمهيّب، الذي قامت به جميع طبقات المجتمع الروسي في شتى الميادين (في الدوما وخارج الدوما، في الصحافه، في النقابات، في الاجتماعات، الخ.)، وبشكل نادراً ما نرى مثيلاً له في التاريخ.

وبالعكس، تتصف المرحلة الثانية من السنوات الثلاث - ونكرر قولنا اننا نقصر هذه المره على وجهه نظر ((علمية اجتماعية)) نظرية صرف - بنطور بطيء، الى حد انه يكاد يعادل الركود. فليس ثمة أي تحول

محسوس الى هذا الحد او ذاك في النظام الساسي. ولم تقم الطبقات بأي عمل او تقريباً بأي عمل, صريح ومتعدد الوجوه, في معظم ((الميادين)) التي جرى فيها هذا العمل في المرحلة السابقة.

اما وجه الشبه بين هاتين المرحلتين فهو ان تطور روسيا ظل في كليهما, التطور السابق, الرأسمالي. فإنه لم يقض على التناقض بين هذا التطور الاقتصادي وبين وجود عده من المؤسسات الاقطاعية التي تتصف بطابع القرون الوسطى, فقط ظل هذا التناقض قائماً, وبدلاً من ان يزول, تقاوم بالعكس من جراء تسرب عدد من العناصر البرجوازية جزئياً في هذه المؤسسات او تلك.

واما وجه الفرق بين هاتين المرحلتين, فهو انه قد برزت في الاولى في مقدمه العمل التاريخي, مسأله معرفه الى أي نتائج ستؤدي التحولات السريعه المتفاوتة المذكورة اعلاه. ان جوهر هذه التحولات, كان لابد ان يكون جوهرأ برجوازيأ, بسبب الطابع الرأسمالي الذي اتصف به تطور روسيا. ولكن ثمة برجوازية وبرجوازية. فأن البرجوازية المتوسطة والكبيره, التي كانت تتمسك بليبيرالية معتدله الى هذا الحد او ذاك, كانت تخشى التحولات السريعه, بحكم وضعها الطبقي بالذات وتجهدها نفسها للحفاظ على البقايا الهامه من المؤسسات القديمه, سواء الزراعي ام في ((البناء الفوقي)) السياسي. اما البرجوازية الريفية الصغيرة, المتشابهة مع جماهير الفلاحين الذين يعيشون ((من عمل ايديهم)) , فكان لابد لها ام تطمح الى تحولات برجوازية من نوع اخر, تاركة مكاناً اقل بكثير لبقايا القرون الوسطى على اختلاف اشكالها. وكان لابد للعمال الاجراء, بقدر ما كانوا يهتمون عن وعي بما يجري حولهم, من ان يرسموا لانفسهم موقفاً واضح المعالم ازاء هذا الاصطدام بين هذين الاتجاهين المختلفين, اللذين كانا يحددان, رغم بقائهما في نطاق النظام البرجوازي, اشكالا مختلفه اطلاقاً لهذا النظام, وسرعه مختلفه اطلاقاً لتطوره, ومدى مختلفاً لمفاعيله التقدميه. وهكذا, جاءت مرحله السنوات الثلاث الاخيره تضع في المرتبه الاولى من الماركسية المسائل التي درج على تسميتها بالمسائل التاكتيكية, ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة بل من قبيل الضرورة. وليس ثمة من رأي اشد خطلاً من الرأي القائل ان المناقشات والخلافات في وجهات النظر حول هذه القضايا كانت مناقشات ((مثقفين)) , و ((نضالاً في سبيل النفوذ على البروليتاريا التي ماتزال قليلة الوعي)) و ((تكيفاً من المثقفين على البروليتاريا)) , كما تظن جماعه فيخي, واضربها. بل بالعكس, فلان هذه الطبقة بلغت درجة النضج, فأنها لم تستطع ان تبقى عديمه الاحساس ازاء تصادم اتجاهين مختلفين يميزان كل التطور البرجوازي في روسيا, وكان لابد لمفكري هذه الطبقة بالضروره من اعطاء تعريفات نظرية مناسبة (بصفه ملموسه ام غير ملموسه, بأنعكاس مباشر ام غير مباشر) لهذين الاتجاهين المختلفين.

وخلال المرحله الثانيه, لم توضح مسأله التصادم بين الاتجاهين المختلفين للتطور البرجوازي في روسيا بوصفها مسأله الساعه, لان هذين الاتجاهين كليهما قد سحقتهما ((الجواميس البريه)) , فنقهقرا, وانطويا على نفسيهما, وضعفاً فتره من الزمن. ام الجواميس البريه المشبعه بروح القرون الوسطى لم تكن لتملا الصوفوف الاولى من مسرح الحياة الاجتماعية وحسب, انما كانت تملأ ايضاً هو شعور جماعه فيخي. فلم يؤد ذلك الى التصادم بين طريقتين لتحويل القديم, انما ادى الى فقدان كل ثقه في أي تحويل كان والى بروز روح ((الخضوع)) و ((الندم)) والولع بالمذاهب اللاجتماعيه, وموضه الصوفيه, وغير ذلك : وهذا مابقى طافياً. وهذا التغيير الفريد السرع لم يكن مجرد صدفة ولا مجرد نتيجة لضغط ((خارجي)) . فأن المرحله السابقه كانت قد حركت فئات السكان التي ظلت طوال اجيال وعصور في معزل عن القضايا السياسية وغيره عن هذه القضايا,

وحركتها عميقاً الى حد ان ((اعاده النظر بجميع القيم)), وبحث القضايا الاساسية من جديد, والاهتمام من جديد بالنظريه, بالالغاء, بدراسه الاصول الاوليه, كل ذلك انبثق بصوره طبيعيه محتومه. ام الملايين, التي استيقظت فجأة من سباتها الطويل وواجهت حالاً اهم القضايا, لم تستطع البقاء طويلاً في مستوى هذه القضايا. انها لم تستطع الاستغناء عن وقفه, عن عودة الى المسائل الاوليه, عن استعداد جديد يتيح ((هضم)) الدروس الغنية بالعبر غنى لاسابق له, ويتيح لجماهير اوسع الى ما لا حد له, امكانية التقدم من جديد, بخطى تكون هذه المره اشد ثباتاً, واوفر وعياً, واوقى اطمئناناً, واشد استقامه, الى حد كبير .

ان ديالكتيك تطور التاريخ قد ارتدى في المرحله الاولى شكلاً وضعت معه في جدول الاعمال مسأله تحقيق تحويلات مباشره في جميع ميادين الحياة في البلاد, كما ارتدى شكلاً في المرحله الثانيه وضعت معه مسأله صياغه النجربه المكتسبه, وحمل اوساطاً اوسع على استيعابها, وادخلها, اذا جاز التعبير, في باطن الارض, في الصفوف المتأخره من مختلف الطبقات.

وبالضبط لان الماركسية ليست عقيدة جامده, ميتة, مذهباً منتهياً, جاهزاً, ثابتاً لايتغير, بل مرشد حي للعمل, لهذا بالضبط كان لا بد لها من ان تعكس التغير الفريد السرعه في ظروف الحياة الاجتماعية. فقد ادى هذا التغير الى تفسخ عميق, الى البلبله, الى ترددات متنوعه, ويكلمه, الى ازمه داخلية خطيره في الماركسيه. ولذا توضع من جديد في جدول الاعمال مهمه القيام بنضال شديد عنيد دفاعاً عن اسس الماركسية. ذلك ان اوسع الفئات من الطبقات التي لم تستطع اجتناب الماركسية, عند صياغه مهماتها, كانت قد استوعبت الماركسية في المرحله السابقيه بأكثر الاشكال تشويهاً وجوداً فقد حفظت هذه ((الشعارات)) او تلك, هذه الاجوبه او تلك على المسائل التاكتيكية, دون ان تفهم المقاييس الماركسية لهذه الاجوبه. ان ((اعاده النظر بجميع القيم)) في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية ادت الى ((اعاده النظر)) بأعم الاسس الفلسفيه للماركسية واشدها تجرداً. وقد برز تأثير الفلسفه البرجوازية, بشتى انواعها المثالية, في وباء ((الماخية)) الذي انتشر بين صفوف الماركسيين. فأن ترديد ((شعارات)) محفوظه عن ظهر القلب, ولكن دون فهم ودون تأمل, ادى الى انتشار ضرب من التعابير الجوفاء على نطاق واسع, وهذه التعابير الجوفاء انتهت عملياً الى ميول برجوازيه صغيره مناقضه للماركسيه بصوره جذريه, مثل ((الاوتزوفيه)), الكشوفه او المستورة, او مثل وجهه النظر التي ترى في الاوتزوفية ((مظهرأ مشروعاً)) للماركسية.

ومن جهه اخرى, تبين ان ميول جماعه فيخي, وروح التخلي الذي استولى على اوسع فئات البرجوازية, قد تسربت ايضاً الى الميل الذي يريد ادخال النظرية الماركسية والتطبيق الماركسي في نطاق ((الاعتدال والنظام)) فلم يبق فيها من الماركسية سوى التعابير التي تغطي المحاكمات المشبعه تماماً بالروح الليبيرالي حول ((تدرج المراتب)), و((الزعامه)), الخ...

يقيناً ان نطاق هذا المقال لايمكن له ان يتسع لبحث هذه المحاكمات, انما تكفي الاشاره اليها لكي نوضح ما قيل اعلاه عن عمق الازمه التي تجتازها الماركسية, وعن الصله التي تربطها بكل الوضع الاجتماعي والاقتصادي في المرحله الحاضرة. فليس بإمكاننا ام ندير ظهورنا للمسائل التي تثيرها هذه الازمه. وليس ثمة ما هو اشد ضرراً ومخالفه لمبادئ من محاوله التهرب منها بالثرثره الفارغه وليس ثمة ما هو اهم من اتحاد جميع

الماركسيين الذين يدركون عنق الازمه وضرورة مكافحتها دفاعا عن الاسس النظرية للماركسية وعن مبادئها الاساسيه التي تشوه من مختلف الجوانب بنشر التأثر البرجوازي بين مختلف ((رفاق الطريق)) الماركسية.

ان مرحله السنوات الثلاث السابقه قد اشركت عن وعي, في الحياة الاجتماعية, اوساطاً واسعاً ماتزال اليوم في معظم الاحيان تخطو حقاً الخطوات الاولى للاطلاع على الماركسية. وبهذا الصدد تولد الصحافه البرجوازية عدداً من الضلالات اكثر بكثير مما مضى وتنتشرها على نطاق اوسع. ولذا كان فهم هذا التنسخ واسباب حتميته في الفتره التي نجتاز, والتجمع لمكافحته بحزم, المهمه التي يفرضها عصرنا على الماركسيين, بكل معنى الكلمه الدقيق والاولي.

—

جريده ((زفيزدا)), العدد 2

23 كانون الاول (ديسمبر) 1910

المجلد 20, ص 84 - 89